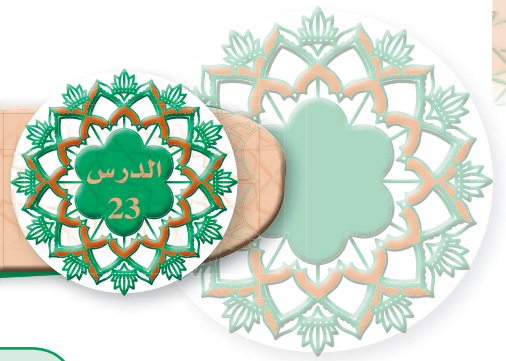


القيم والأخلاق في الفلسفة الإسلامية (السعادة)



أهداف الدرس

1. أن أتعرف معنى السعادة ومصدرها وأنواعها؛
2. أن أتبين وظيفتها وأثرها في بناء السلوك الإنساني الصحيح؛
3. أن أتمثل مزياتها وفضلها في تربية ملكتي في الفهم والتوظيف.

تمهيد

تحصيل السعادة شغل فكر الانسان ، وسكن وجدانه منذ قديم العصور ، وتعاقب الأجيال ، وتناولها مفكرو الإسلام وفلاسفته ، وعلماء الاجتماع والأخلاق ، تصورا ورؤية وهدفا؛ سعيا وراء تفسير هذا الشعور النفسي الداخلي في علاقته بسلوك الإنسان والغاية من حياته .

فما السعادة؟ وما علاقتها بالأخلاق والقيم؟ وما أثرها في السلوك؟

نص الانطلاق

1. يقول الإمام الغزالي: «واعلم أن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين شرحوا أحوال الآخرة، أتم شرح وبيان، وإنما بعثوا لسوق الناس إليها ترغيبا وترهيبا، تشويقا وتخويفا، مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل؛ لاسيما في الشريعة الأخيرة من تقرير أحوال المعاد بالروحاني والجسداني، والعاجل والآجل، وضرب الأمثال فيها، وإقامة البرهان عليها. وإنما يُتعرّف حال ما بعد الموت من الأنبياء عليهم السلام؛ لأنهم اطلعوا على أحواله وحيا وإخبارا، والعقل المجردُ كيف يهتدي إلى مقادير العلوم والأخلاق، حتى يُرتب على كل علم وعمل جزاء في الآخرة مُقدرا عليها مناسبا لها. ومن المعلوم أن العلوم مترتبة متفاضلة، وإنما شرفها بشرف معلوماتها، ومقاديرُ الشرف فيها مترتبة على مقادير شرف المعلومات، ومقادير السعادة بها. والجزاء عليها مرتبٌ على مقادير الشرف فيها».

[معارج القدس، ص 147]

2. يقول ابن مسكويه: «وأما السعادة فلأنها أمر إلهي، وإنما تُفعل الأشياء كلها لأجلها، فهي كذلك أيضاً مُمَجَّدة، فعلى هذا الأمر ينبغي أن لا تمتدح السعادة، لأنها أَجَلٌ من كل مدح، بل نُمجدها في نفسها، وتمدح الأمور كلها بها، وبقدر قسطها منها». [تهذيب الاخلاق، ص114]

الفهم

استخلاص المضامين:

- أستخلص من النصين معنى السعادة، ومصدرها، وأثرها في حياة الإنسان.

الشرح:

- سَوْقٌ: قيادة.
- الشريعة الأخيرة: شريعة الإسلام.

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: السعادة: معناها ومصدرها وأنواعها

سبق في درس الفضيلة التمهيدُ بمعنى القيم، وسنمهد لدرس السعادة بمعنى الأخلاق؛ قال الراغب الأصبهاني: «والخُلُقُ والخُلُقُ في الأصل واحد،... لكن خُصَّ الخُلُقُ بالهيئات والأشكال والصُّور المدركة بالبصر، وخصَّ الخلق بالقوى والسَّجَايا المدركة بالبصيرة. قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ [القلم/4]... والخَلَقُ: ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخُلُقِه، قال تعالى: ﴿مَالَهُ فِي إِلَهِهِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة/102]» [المفردات في غريب القرآن، ص297] ويعرف الإمام الغزالي الخُلُقَ فيقول: «عبارة عن هيئة راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية». [إحياء علوم الدين 3/53]، وقال ابن مسكويه: «الخُلُقُ حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية» [تهذيب الأخلاق ص25].

1- معنى السعادة: السعادة ضد الشقاء وهي: الرضى التام بما تناله النفس من الخير، يقول ابن مسكويه: «إن السعادة هي أفضل الخيرات» [تهذيب الأخلاق، ص65]. ويرى الكندي أن السعادة هي طهارة النفس والعروج بها إلى عالم الحق وطرح الأحزان، فالسعادة الحققة هي الابتعاد-على قدر الطاقة-عن اللذات الحسية؛ لأنها تولد الأحزان، وتسبب الشقاء، وتجلب الشر. يقول الكندي:

«فإصلاح النفس واشفاؤها من أسقامها، أو جب علينا من إصلاح أجسامنا، فإصلاح ذواتنا أولى بنا من إصلاح آلاتنا». [رسالة في الحيلة لدفع الاحزان، ص 10 بتصرف]

أما الفارابي فيرى أن السعادة أن تُحرّر النفس من قيود المادة وأغلالها، وهي الخير المطلوب لذاته يقول- رحمه الله-: «السعادة هي الخير المطلوب لذاته. وليست تطلب أصلا- ولا في وقت من الأوقات- لئال بها شيء آخر، وليس وراءها شيء آخر، يمكن أن يناله الإنسان أعظم منها». [أراء أهل المدينة الفاضلة، ص 64]

2- مصدر السعادة: الشريعة هي مصدر السعادة، قال ابن مسكويه: «والشريعة هي التي تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية، وتُعد نفوسهم لقبول الحكمة، وطلب الفضائل، والبلوغ إلى السعادة الإنسيّة بالفكر الصحيح والقياس المستقيم، وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة» [تهذيب الأخلاق، ص 45]، وقال ابن سينا: «قد بسطت الشريعة الحقّة التي أتانا بها نبينا المصطفى محمد ﷺ حال السعادة والشقاوة التي بحسب البدن، ومنه ما هو مدرك بالفعل والقياس البرهاني، وقد صدقته النبوة، وهو السعادة والشقاوة الثابتان بالمقاييس التي للأنفس، وإن كانت الأوهام تقصر عن تصورهما الآن». [النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، لابن سينا، ص 291]

3- أنواع السعادة: السعادة «ضربان: سعادة أخروية، وسعادة دنيوية، ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب: سعادة نفسية، وبدنية، وخارجية» [التعريفات للشراف الجرجاني 264]. ويرى ابن مسكويه أن أقسامها: خمسة: أحدها في صحة البدن ولطف الحواس، ويكون ذلك في اعتدال المزاج. والثاني في الثروة والأعوان. والثالث أن يحسن حديث السعيد في الناس، وينتشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم. والرابع أن يكون ناجحا في أموره. والخامس أن يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات. [تهذيب الأخلاق، ص 66 بتصرف]

يقسم ابن مسكويه السعادة إلى: سعادة نظرية، وسعادة عملية فيقول: «الفلسفة تنقسم إلى قسمين الجزء النظري والجزء العملي، فإذا كمل الإنسان بالجزء العملي والجزء النظري، فقد سعد السعادة التامة، أما كماله الأول بإحدى قوتيهِ؛ أعني العالمة، وهي التي يُشتاق بها إلى العلوم، فهو أن يصير في العلم بحيث يصدق نظره، وتصح بصيرته، وتستقيم رويته، فلا يغلط في اعتقاد، ولا يشك في حقيقة، وينتهي في العلم بأمور الموجودات على الترتيب إلى العلم الإلهي الذي هو آخر مرتبة العلوم، ويثق به ويسكن إليه ويطمئن قلبه، وتذهب حيرته.... وأما الكمال الثاني الذي يكون بالقوة الأخرى أعني القوة العاملة فهو الذي نقصده في كتابنا هذا وهو الكمال الخلقى ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة حتى لا تتغالب وحتى تتسالم هذه القوى فيه، وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته المميزة منتظمة مرتبة كما ينبغي، وينتهي إلى التدبير المدني الذي يرتب الأفعال

والقوى بين الناس ، حتى تنتظم ذلك الانتظام ، ويسعدوا سعادة مشتركة ، كما كان ذلك في الشخص الواحد؛ فإذا الكمال الأول النظري منزلته منزلة الصورة ، والكمال الثاني العملي منزلته منزلة المادة ، وليس يتم أحدهما إلا بالآخر». [تهذيب الأخلاق، ص 50 بتصرف]

4- مسؤولية المجتمع عن تحصيل سعادته: المجتمع مسؤول عن سعادته، متعاون على تحصيلها، يقول ابن مسكويه: «فقد تبين أيضا أجناس من السعادات بالجملة وأضدادها من الشقاوات وأجناسها وأن الخيرات والشرور في الأفعال الإرادية هي إما باختيار الأفضل والعمل به، وإما الأدون والميل إليه، ولما كانت هذه الخيرات الإنسانية وملكانها التي في النفس كثيرة ولم يكن في طاقة الواحد القيام بجميعها وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم، ولذلك وجب أن تكون أشخاص كثيرة، وأن يجتمعوا في زمان واحد منهم على تحصيل هذه السعادات المشتركة لتكميل كل واحد منهم بمعاونة الباقيين له، فتكون الخيرات مشتركة والسعادة مفروضة بينهم فيتوزعونها بينهم حتى يقوم كل واحد بجزء منها ويتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الإنسي». [تهذيب الأخلاق ص 23]

المسألة الثانية: أثر السعادة في بناء السلوك الإنساني

للسعادة أثر في بناء السلوك الإنساني، ومن تجليات ذلك:

- الترفع عن الدنايا والتزام الحدود في نطاق الفضيلة والنبل والصفاء والمشروعية؛ فالإمام الغزالي طلب العلم في البداية من أجل المال والجاه وذيوع الصيت، فلم يحقق سعادته وأمنيته، فأعرض عن هذا السبيل، بل وجد سعادته في نيل رضى الله ومثوبته، يقول الإمام الغزالي: «وأنا أعلم أنني وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت، فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه، هذا هو الآن نيتي وقصدي، يعلم الله ذلك مني، وأنا أبغي أن أصلح نفسي، وغيري، ولست أدري أصل إلى مرادي، أم أخترم دون غرضي...؟» [المنقذ من الضلال، ص 159]

- ترقية العقل: صرف همه عن الانشغال بالجسد ومغرياته؛ حيث يرقى عقل الإنسان عند ما يلتزم بمسلكين اثنين: أحدهما: ديني محدد بالعبادات الدينية، والأمور الشرعية. والآخر: فلسفي معرفي مرتبط بالقوانين المنظمة تعين على معرفة الحق، وتفادي الباطل والزلل.

- معرفة الخير الحقيقي: فالخير الحقيقي هو الحكمة، وهي المعرفة المطلوبة لذاتها، والغاية القصوى فيسعي الإنسان لتشوفه إلى الخير إلى تحصيلها، يقول الفارابي: «الأفعال الإرادية التي تنفع

لبلوغ السعادة، هي الأفعال الجميلة، والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الأفعال هي الفضائل، وهذه خيرات لأجل ذواتها بل إنما هي خيرات لأجل السعادة». [آراء أهل المدينة الفاضلة، ص: 107]

- مجاهدة النفس: حتى لا تشغل صاحبها عن الوصول إلى اللذات العقلية التي هي أشرف اللذات وأرقى السعادات. يقول الإمام الغزالي: «ومن المعلوم أن العلوم مترتبة متفاضلة، وإنما شرفها بشرف معلوماتها، ومقادير الشرف فيها مترتبة على مقادير شرف المعلومات، ومقادير السعادة بها». [معارج القدس، ص 147] فالاستمرار في العلم استزادة من السعادة؛ فالعلم شعاع وضيء يمزق ظلمات الجهل وعتمته. يقول ابن سينا: «كلما ازداد الناظر استبصارا، ازداد للسعادة استعدادا». [الشفاء - الإلهيات - 471/2]

التقويم

1. أعرف السعادة، وأبين مصدرها وأنواعها؛
2. أوضح أثر السعادة في السلوك الإنساني.

الاستثمار

يقول طاش كبرى زاده: «إياك أن تستهين بشيء من العلوم... بل يجب أن تجعل لكل واحد حظه الذي يستحقه، ومنزله الذي يستوجبه، وتشكر من هداك إلى فهمه، وصار سببا لعلمه، فقد حكي عن بعض الفضلاء أنه قال: يجب أن نشكر آباء العلماء الذين ولدوا لنا الشكوك، إذ كانوا أسبابا لمن حرك خواطرنا للنظر في العلم، فضلا عن شكر من أفادنا طرفا في العلم، ولولا مكان فكر من تقدمنا لأصبح المتأخرون، حيارى قاصرين عن معرفة مصالح دنياهم، فضلا عن مصالح آخرتهم». [مفتاح السعادة، ص 29]

أتأمل النص وأبرز من خلاله فضيلة العلم وسعادة العلماء به في تحقيق التنمية العقلية، والمنفعة الخلقية، والاطمئنان النفسي فهما واكتسابا وتمثلا.

الإعداد القبلي

أبحث - رفقة أصدقائي - عن أثر الفلسفة الإسلامية في الفكر الإنساني .